

«الجبرتي»

والصراع الفكري في عصره

د. نشأت الخطيب

١ الجبرتي مؤرخا على مفترق الطرق :

ان المسيرة التاريخية للمؤرخين المسلمين بدأت ، منذ القرن الثاني الهجري ، مع الاهتمام الاول للفقهاء والمحدثين ، في بدء تسجيل انتشار الدعوة الاسلامية وتغطية امتدادها الواسع على رقعة كبيرة من القارات - آسيا وافريقيا واوروبا - . وهذا ما يفسر لنا لماذا كانت الانطلاقة التاريخية الاولى ، انطلاقة دينية ، بدأت منذ بدا تدوين القرآن والسنة ، ومن ثم تدوين الحروب الاسلامية المتمثلة بفزوات الرسول وفتوحاته وفتوحات الخلفاء الراشدين والفتوحات التي تلتها في عهد الدولة الاموية .

واذا كانت بداية المسيرة التاريخية ، المتمثلة بالكتابات الهائلة التي تركها المسلمون ، قد تركت نمطا معيناً في الكتابات التاريخية سمي بالمنهج الاسلامي ، فقد تمثل هذا المنهج بصورة شتى من الكتابات التاريخية عرفت بتاريخ الحوليات وتاريخ الطبقات وتاريخ الدول والانساب . فابن يقف الجبرتي من هذا المنهج وتحت اي صورة تندرج كتاباته ، وهل يعتبر الجبرتي في عداد المؤرخين التقليديين ام هو مؤرخ متجدد ؟ كل هذه الاسئلة تتوضح لدينا الاجابة عنها عندما نضع الجبرتي في عصره وننصفح تاريخه ونتعرف الى منهجيته ؛ فالجبرتي مؤرخ مصري ولد عام (١١٦٧ هـ - ١٢٤٠ هـ) اي في سنة (١٧٥٤ - ١٨٢٥ م) وقد ظهر كمؤرخ عملاق في اواخر القرن الثامن عشر واول القرن التاسع عشر ، وعلى ذلك يكون معاصرا لواقع مصري اعتبر عصر انتقال من حال الى حال ، وهو عصر الثورة المصرية ؛ وقد عالج الجبرتي الاحداث التي مرت على مصر في هذه الفترة معالجة دقيقة بأسلوب تحرري فيه الحقيقة وافاض فيها في فترة عصيبة من حياة مصر كانت تجتازها وتعتبر منعظا خطيرا في حياة شعبها في ذلك الوقت .

فلاحداث المتتالية والمتلاحقة بسرعة ، منذ اشتداد الخصومات بين البيوت المملوكية الكبيرة ومحاوله الدولة العثمانية استعادة سيطرتها على مصر ، حتى نزول الحملة الفرنسية ارض مصر عام ١٧٩٨ م ثم خروجها بعد وصول حملة انجليزية اخرى وما تلا ذلك من احداث حتى

تولى محمد علي حكم مصر سنة ١٨٠٥ ، والسنوات الاولى من حكمه بما امتلأت به من حوادث جسام ، كنزول الحملة الانجليزية على مصر في سنة ١٨٠٧ ، ومذبحة المماليك ، وبدء الحروب الوهابية عام ١٨١١ م ، والغاء نظام الالتزام ، وبدء تطبيق سياسة الاحتكار وغيرها . كل هذه الاحداث مجتمعة سارعت في اشتداد نبض الحياة المصرية ، في تلك الفترة المفعمة بالاحداث ، الحافلة بالتطورات الخطيرة في حياة الشعب المصري . ولا يمكن ان تمر كل هذه المنعطفات الخطيرة والاحداث التاريخية المهمة دون ان يظهر من يتصدى لتبعتها ، ويبادر الى تسجيلها وربطها بعضها ببعض ، حتى يظهر في التاريخ كتاب متكامل الحلقات وافر المعلومات على نحو ما ظهر عليه كتاب الجبرتي (عجائب الآثار في التراجم والاخبار) .

وشخصية الجبرتي ، بتعدد جوانبها العلمية وتباين عناصرها المتكاملة ، تبرزه رجل دين ودنيا اخذ من كل شيء بطرف ، واسع الافق ، يجتذبه بصفة خاصة ما يصح ان نسميه « الشؤون العامة » .

واذا كان الاحتلال الفرنسي لمصر حدثا عابرا ، فلقد امتد العمر بالجبرتي ليشاهد محمد علي يتعهد ويتولى تنفيذ ثورة اقتصادية واجتماعية ، رسم الفرنسيون خطوطها . ولم يقتصر الحال بالجبرتي على ان يعيش في خضم هذه التقلبات غير العادية . فقد منح القدرة على ادراك مفزاها ، واوتي القدرة العلمية على تسجيلها باحساس صادق مرهف يتيح لمن يطلع على مجرى الاحداث التي سجلها تفاعلا مع تجربته ، ويتجاوب معه عاطفيا وفكريا . لانه يرافق بصيرته النافذة وهو يراقب ويسجل جميع المراحل المتعاقبة من تاريخ مصر طوال السنوات التي عاشها . (١)

وكان الجبرتي يملك موهبة سيكولوجية بعيدة الشفافية مكنته من استيعاب حقيقة الدخلاء الذين اجتاحتوا بلاده او حكموها .

فالمماليك ارقاء دخلاء اتوا الى مصر من القوقاز . والعثمانيون دخلاء بمن فيهم الانكشارية الذين كانوا يروضون باستمرار . وكذلك الحال بالنسبة للحكام المتتاليين كمحمد علي الدكتاتور ذي البأس . والفرنسيون دخلاء اتوا من بلاد الفرنجة كما كانوا اشد تهورا في عدوانهم ، من المستعمرين اللاحقين ، في اعتدائهم على الحرمات والمقدسات الاسلامية واستهانتهم بالتقاليد والعادات المتوارثة . ان الجبرتي قد علم حقيقتهم جميعا . وتجلت شفافيته السيكولوجية في ادراكه نقاط القوة والضعف في سلوك الفرنسيين غزاة مصر .

وكان الجبرتي - مثل توسيديد ، اليوناني القديم - مؤرخا وقع عليه ، بالمثل ، عبء كتابة تاريخ حقبة شاذة من حياة الحضارة التي نشأ بين ذراعيها . (٢)

(١) الدكتور احمد عزت عبد الكريم - عبد الرحمن الجبرتي دراسات وبحوث - المقدمة - الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٢) من كلمة المؤرخ البريطاني - آرنولد توينبي - التي القيت بالنياحة عنه في ندوة الجبرتي في القاهرة (١٦ - ٢٣ نيسان) ٧٤ .

فالجبرتي لم يقتنع بالعلم التقليدي الذي كان شائعا في ذلك الوقت ، والذي كان الازهر موطن استقراره ، كالفقه والحديث وسائر علوم الدين واللغة ، ولكنه اضاف الى ذلك معرفة عميقة بطائفة من العلوم الوضعية كعلوم البيئة والفلك والطب والحساب ، تلك العلوم التي اعتبرت حديثا من العلوم التي يجب ان يدركها المؤرخ لفهمه تقاطع الاحداث التاريخية وتفسيرها العقلاني العميق . والذي ساعده على الالمام بكل هذه العلوم كونه ابن الشيخ حسن الجبرتي ابرز العلماء المهتمين بهذه العلوم في عصره . والى جانب هذا التراث العلمي ورث الجبرتي مكانة بارزة في المجتمع المصري حيث نشأ في بيئة مترفة ، كان فيها العلماء عنصرا عظيم الاهمية في حياة مصر الممالك والحاكم العثماني معا .

ومحور كتاباته تركز على رفض ادعياء الصوفية واصحاب الكرامات والولاية ، ذلك لان « العقلانية » التي كان يصطنعها في مدارس العلوم الوضعية او التطبيقية ، التي ورثها عن ابيه ، تنأى به عن الاعتقاد بمثل هذه الاشياء . واغلب الظن انه كان من اهل السنة ، التمسكين بمبادئها ، لذلك حز في نفسه ان يشهد موكب الامراء السعوديين بطاف بهم في شوارع القاهرة مصفدين بالاغلال فيفضب قائلا : « كيف تقتلون اناسا يقولون لا اله الا الله » ؟ . (٣) لقد تأثر الجبرتي بالانفجار الوهابي في الجزيرة العربية والانفجار الفرنسي المتمثل بالثورة الفرنسية ، وهذا التأثير كان حافزا له دفعه لمواصلة الاهتمام بتدوين الوقائع والاحداث ، وكان قد بدا ذلك ، قبل وصول الفرنسيين بعشر سنوات ، حين اتصل به شيخه العلامة الشيخ مرتضى الزبيدي ، صاحب « تاج العروس » ، وطلب اليه ان يساعده على تدوين تراجم المشهورين من رجال المائة السابقة (اي القرن الثاني عشر الهجري) . واستجاب الجبرتي لطلب شيخه وانطلق في مهمته الجليلة ، يجمع مواد كثيرة عن مشاهير ذلك القرن من علماء ومتصوفة واجناد وامراء ، ويقابل المعمرين من الاشخاص المعنيين يسألهم ويدون افاداتهم ، ويتفحص ما وصل الى يده من الكتب والمؤلفات ، والكتابات المنقوشة على الاضرحة والقبور . فرغب بهذا النوع من العمل واتسع امامه مجال الكتابة في هذا الميدان ، حيث تأكد له ان الفصل يكاد يكون متعذرا بين الاحداث والرجال . وبينما كان الجبرتي ماضيا في عمله توفي شيخه الزبيدي ووصله كتاب من مفتي دمشق الشيخ خليل المرادي يسأله ان يبحث في خزانة الشيخ ، ليرسل اليه ما يجده من تراجم ويضيف اليها ما كتبه الجبرتي نفسه . وهنا أدرك الجبرتي انه كان ثالث ثلاثة يشتغلون في هذا المشروع الكبير . فكان « فن التراجم » المدخل الذي دخل منه الجبرتي الى كتابة التاريخ والذي تجسد في كتابه :

- ١ - مظهر التقديس في زوال دولة الفرنسيين - وصف فيه احوال مصر ايام الفرنسيين .
- ٢ - وعجائب الآثار في التراجم والاخبار - وهو تاريخه الكبير الذي سرد فيه احوال البلاد بايجاز حتى منتصف القرن الثامن عشر تقريبا . ثم بقدر متزايد من التفصيل حتى

(٣) الدكتور احمد عزت عبد الكريم - الجبرتي ، دراسات وبحوث - ص ٢٢ - ٢٣ .

سنة ١٨٢٠ م اي قبل وفاته بنحو اربع سنوات . (٤)

اما اسلوب الجبرتي في الكتابات التاريخية فقد جعله في عداد المؤرخين المسلمين الذين كتبوا تاريخ الحوليات والذين خلفوا لنا تراثا ينسم عن منهجهم واسلوب تفكيرهم ومستوى ثقافتهم . ولم يكن الوقت الذي عاش فيه سوى زمن خيم فيه الركود على الوطن العربي . وسجل في كتابه « عجائب الآثار » تاريخ مصر ، من اواخر القرن السابع عشر حتى الربع الاول من القرن التاسع عشر ، وهي الفترة التي أصبح فيها المجتمع العربي الاسلامي بوجه عام مستكينا لحالة تبرد عام مقرون بالفبيات الباعثة على السلبية ولا يلقي بلالا للاشعاعات المنبثقة من اوربا ، وكانت الصلة منقطعة بينه وبين اوربا الغربية ، فحافظ على تلك الشخصيات الوسيطة التي كانت في طريقها الى الانحلال في الغرب ، كالاتقاد بالتنجيم وقراءة الطالع وفنون السحر . وليس غريبا ، في هذه البيئة التي تسيطر عليها هذه الافكار ، ان تدهور الكتابة التاريخية خاصة وان معاصري الجبرتي كانوا يعتبرون التاريخ (من شغل البطالين واساطير الاولين) . ويسجل الجبرتي ان من اسباب تدهور الكتابة التاريخية في ايامه تسرب الكتب التاريخية من البلاد : « فانا لم نر من ذلك كله الا بعض اجزاء مدشنة بقيت في بعض خزائن كتب الاوقاف بالمدارس ، مما تداولته ايدي الصحافيين وباعها القومة والمباشرون ونقلت الى بلاد المغرب والسودان ، ثم ذهبت بقايا البقايا في الفتن والحروب واخذ الفرنسيين ما وجدوه الى بلادهم » (٥) . لهذا فان ظهور مؤرخ كمبد الرحمن الجبرتي كان ظاهرة ضرورية ابرزتها البيئة العلمية التي نشأ فيها والظروف المادية التي احاطت به وهي ظروف يسر لم تتح للكثير من الكتاب سواء في عصر الجبرتي أم في غيره .

لقد شغف الجبرتي بالتاريخ الذي هو لديه : « علم يبحث فيه عن معرفة احوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وصنائعهم وانشابهم ووفياتهم . وموضوعه احوال الاشخاص الماضية من حيث هي وكيف كانت » . (٦)

وتندرج في مفهوم التاريخ لديه علوم كثيرة ، فصلها في تنوع صور المادة التاريخية التي خاضها ، منها طبقات القراء والمفسرين والمحدثين وسير الصحابة والتابعين وطبقات المجتهدين وطبقات النحاة والحكماء والاطباء واخبار الانبياء واخبار المغازي وحكايات الصالحين ومسامرة الملوك من القصص والاخبار والمواظع والعبر والامثال وغرائب الاقاليم وعجائب البلدان . وهو ، في هذه الكتابات ، يبرز اصالة صورة اسلامية بحتة من صور الكتابات التاريخية التي تمثل تقليدا اسلاميا صرفا هو موضوع الطبقات المتمثل بالصحابة والتابعين وتابعي التابعين . والثناء

(٤) المرجع السابق - ص ٢٢ - ٢٤ .

(٥) الدكتور احمد عبد الرحيم مصطفى - عبد الرحمن الجبرتي مؤرخا - ص ٣١ - ٣٢ - الجبرتي - دراسات وبحوث وانظر عجائب الآثار ، ١ - ص ٦ .

(٦) انظر عجائب الآثار - ١ - ص ٢ - و ص ٥ .

الذي لقيه على كتابه (مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيين) قوى من عزمه على متابعة مشروعه التاريخي . ولقد وضع هذا الكتاب وأهداه الى الوزير العثماني يوسف باشا ، ويدور موضوعه حول الاشادة بالدولة العثمانية والافاضة بسرد احداث الحملة الفرنسية دون ان يذكر شيئا عن اتصاله بالفرنسيين وحضوره حفلاتهم ومشاهدته لتجارهم العلمية واحاديثه مع العلماء .

وحين تقوم تاريخ الجبرتي نجد انه قد اثار اهتماما كبيرا ، لم يقتصر على المهتمين بتاريخ مصر الحديث من العرب ، بل ان المستشرقين اعتبروه مصدرا رئيسيا على درجة كبيرة من الاهمية ، فمثلا نرى ماكدونالد - في دائرة المعارف الاسلامية - يذكر ان الجبرتي باعطائه صورة تفصيلية للحياة الشرقية له قيمة اجتماعية عظيمة . وقد افاد منه « لين » لهذا الغرض في التعليقات التي وضعها لكتاب الف ليلة وليلة . ومما يجعل كتابه « عجائب الآثار » مصدرا من الدرجة الاولى ، ما تميز به هذا المؤلف من دقة واستقصاء للاحداث والتحفظ في ذكرها . (٧)

وتمتاز كتابات الجبرتي بالموضوعية التي نستشفها من تأكيده انه يكتب للحقيقة والتاريخ: « ولم اقصد بجمعه خدمة ذي جاه كبير او طاعة وزير او أمير ولم اداهن فيه دولة بنفاق او مدح او ذم مباين للاخلاق ... لئيل نفساني او غرض جسماني » . كما انه ينوه الى انه لم يثبت الا ما وصل علمه اليه وثبت خبره لديه ، وانه لم يخترع شيئا تلقاء نفسه (٨) .

وموضوعية الجبرتي لا تعرض الاحداث صورا باردة ، بل ان كتاباته تفيض بالحرارة التي من ورائها ، نحس عمق انفعاله ، ذلك ان الجبرتي محب لبلده ، يفرح لفرحه ويحزن وينفعل لحزنه ، ولا ينظر الى الاحداث من بعيد ، بل يعايشها ويتأثر بها ، ومما يجعل تاريخ الجبرتي صورة نابضة بالحياة ان تاريخ مصر العثمانية أغنى بكثير من تاريخ غيرها من الولايات العثمانية في الفترة نفسها . وقارئ الجبرتي يلاحق دائما خط الحياة الجياشة التي يصورها قلمه فينتقل ويمش في الجو الحقيقي لمصر وللعصر . وقد امتاز الجبرتي عن تقديمه من مؤرخي مصر بأنه لم يقصر اهتمامه على عليية القوم والاحداث الهامة لانه اعتنى بالامور الجلية والتافهة ولم يدع شيئا الا دونه ، بعد ان تحرى عنه ودققه ، لذلك كان نزيتها في الرواية يكشف عن آرائه فيما يعرض له ، فينبسط وينقبض ويسخر ويتهمك ويشتط ويقضب ، الا انه ، مهما حاول الارتفاع عن مستوى عصره ، فقد بقي مشدودا اليه لا يسمو الى النظرة الشاملة ، لا يعرف شيئا عما يسمى بالسياسة العليا . كما نجده يعكس التعصب الديني الذي كان يسود مجتمعه ، وان يكن هذا التعصب قد خفت حدته بمرور الزمن ، نتيجة لما لمسه بنفسه من تفوق الفرنسيين ، المخالفين للمصريين في الدين ، لدرجة انه تمنى في اعقاب الحملة الفرنسية زوال العثمانيين

(٧) نفس المرجع - ص ٣٥ .

(٨) عجائب الآثار في التراجم والاخبار - المقدمة - الطبعة الاهلية .

الذين عاثوا في الارض فسادا ، شأنه في ذلك شأن الكثيرين من الناس في مصر ، خاصة الفلاحين منهم ، والذين تمنوا « احكام الفرنساوية » . (٩)

اولع الجبرتي بالتفني بالعدل والتشنيع على ظلم الحكام ، وقد عرف العدل الذي يفهمه باقامة الشريعة والرفق بالرعية ، مما جعله يتخذ موقف الناقد لمستحدثات الامور خاصة ما جاءت به الحملة الفرنسية . وقد تأثر بالصداقة الشخصية والصحة ، فهو يعلن ميوله الذاتية وياشاره هذا على ذلك .

ويرتبط اثر الحملة الفرنسية في تفكير الجبرتي بما اثارته في آفاق المصريين ، بوجه عام ، اذ طرحت امامهم تحديا عنيفا لهم ولقوماتهم **عندما وضعت امامهم نمطا حضاريا متفوقا نظروا اليه بعين الشك لمخالفته لالوفهم** ، فاستفج الجبرتي ، ما شاءت له عاداته وتقاليده ، مستحدثات الفرنسيين كانقلات بعض الرجال والنساء وتحللهم من المثل الاخلاقية التي انطبع بها المجتمع المصري ، حيث ابيح البغاء العلني وسفرت بعض النساء ولبسن الملابس الملونة واختلطن بالرجال ؛ وتمردت بعض الفئات الاجتماعية على التقاليد الموروثة ، وتحدثت العرف الاسلامي بالاكل والشرب في رمضان وتعاطي المسكرات ؛ وتدخل الفرنسيون في صميم حياة الناس واشتدوا بالارهاب والتنكيل كلما نشبت ثورة او اضطراب (١٠) ورغم ان الجبرتي شارك معاصريه من المصريين شعورهم ازاء الحملة الفرنسية ، فان ذلك لم يجعله ينض الطرف عن بعض المنجزات التي قاموا بها ، وقد اعجبه من الفرنسيين حبهم الزائد للعلم « ولهم فيه امور واحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا تسعها عقول امثالنا » .

اما احكام الجبرتي على الاصلاحات التي بداها محمد علي فقد اطلقها على اساس اخلاقي . ولانه كان ينتمي الى الفئات التي مستها الاجراءات الصارمة التي اتخذها محمد علي للقضاء على الفئات التي كانت تشكل ركائز لتثبيت السلطة وازعاج الحكومة المركزية ، كالمليين وكبار حائزي الاراضي واثرى المشايخ والماليك ، فقد وجه الجبرتي اتهاماته الى محمد علي ووصفه بأنه اعتدى على « مسائر الناس ، واغلق البيوت المفتوحة لان في طبعه داء الحقد والطمع والتطلع لما في ايدي الناس وارزاقهم » . وهذا يدلنا على ان الجبرتي لم يستطع تفسير التغيرات التي قام بها محمد علي ، في سبيل السير بمصر على طريق التقدم السريع ، ولم يصدر الحكم الصحيح عليه بأنه حاكم مستبد مستنير كانت محاولاته تهدف لتوفير المال الضروري لبناء الدولة الحديثة التي تحمل عبء تنفيذ المشروعات العامة والتي كانت البلاد في امس الحاجة اليها . لكن من حق الجبرتي علينا ان نذكر انه لم يكن متحاملا دائما ولا يتردد بعض الاحيان في الاشادة ببعض الاعمال الجليلة التي قام بها محمد علي ، فمن ذلك ذكره ان « الباشا كان يشجع ابناء مصر على

(٩) احمد عبد الرحيم مصطفى - عجائب الآثار في التراجم والاخبار لعبد الرحمن الجبرتي - ص ٥٥٨ - تراث الانسانية تموز ١٩٦٦

(١٠) الجبرتي دراسات وبحوث - ص ٢٦ .

التعليم وكان له دور كبير في ارسال البعثات من الشباب الى الخارج كي يتثقفوا ويتعلموا ووصف محمد علي بأنه ، له « مندوحة لم تكن لغيره من ملوك الزمان » وان يكن قد تحفظ بقوله « فلو وفقه الله لشيء من العدالة على ما فيه من العزم والرياسة والشهامة والتدبير والمطاوله لكان اعجوبة زمانه وفريد اوانه » (١١) .

ويدلنا حكم الجبرتي على اعمال محمد علي ، انه لم يلحق النهضة الفكرية التي شهدتها مصر في القرن التاسع عشر واسهم فيها شيخ ازهري من معاصريه هو الشيخ حسن العطار الذي احتك بالفرنسيين وآمن بأن مصر لا بد لها ان تتغير ، وهذا لا يكون الا بالاستفادة والاخذ بالعلوم التي كانت سببا في النهضة الاوروبية .

ويتضح انتماء الجبرتي للماضي من تفسيره للاحداث في اطار الفيبات الدينية . وقد فرس دخول الفرنسيين الى مصر ، وفشل محاولات الممالك والمصريين في صدحهم عن الدخول بقوله عن النتيجة انها كانت « امرا مقضيا محتما لا يرد بالدعاء » .

ووصف الحملة الفرنسية ، من وجهة نظر تفسيره لتعاقب الاحداث ، بأنها « بلاء يمتحن به الله المصريين ويعاقبهم بها على سوء فعالهم وظلمهم لبعضهم البعض » ، ويعقب على هذا الاستنتاج ويدعمه بالآية الكريمة : « وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » .

وعندما تحدث عن خروج الفرنسيين من مصر ، بمساعدة الانجليز والأتراك ، عمد ايضا الى التفسيرات الغيبية ، دون ان يشرح المصالح الاساسية التي ادت الى اخراج الفرنسيين من مصر ، حيث برر ذلك بقوله « واذا تأمل العاقل في هذه القضية يرى فيها اعظم الاعتبارات والكرامة لدين الاسلام ، حيث سخر الطائفة الذين هم اعداء للملة هذه ، لدفع تلك الطائفة ومساعدة المسلمين عليهم . » وذلك مصداق للحديث الشريف وقول الرسول الكريم « ان الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » . (١٢)

والتعمن بالاحكام والنتائج ، التي كان يصل اليها الجبرتي عن طريق التعمن والتفكر ، يقودنا الى تمييز خطه المنسجم مع معطيات مسلم ينتمي الى تراث ديني ضخم فسرت الكثير من احداثه واحداث العالم - طبقا له - على ان المشيئة الالهية كانت وراء الاحداث ونتائجها . وطبقا لهذه النظرية التي تربط تفسير النتائج بالارادة الالهية - يعتبر التاريخ ذا فائدة بما يقدمه للبشر من العبر وبما جرى للفافرين وان ينتصح البشر بأحوال الماضين من اسلافهم . « وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن ليحترز العاقل على مثل احوال الهالكين من الامم المذكورة السالفين ويستجلب خيار اقوالهم ويجتنب سوء اقوالهم ويزهد في الفانسي ويجتهد في طلب

(١١) الجبرتي مؤرخا - الدكتور احمد عبد الرحيم مصطفى - الجبرتي دراسات وبحوث - ص ٢٩ .

(١٢) المرجع نفسه - ص ٤٠ .

الباقى « ... » ويعتبر المطلع على الخطوب الماضية فيتأسى اذا لحقه مصاب ويتذكر بحوادث الدهر « . (١٣)

لماذا كان تفسير الاحداث التاريخية الجسيمة التي مرت على مصر في عصر الجبرتي يرتبط بالغيبيات المطلقة التي آمن بها الجبرتي مع انه عاصر ، فترة ، بدء النهوض الثقافي والعلمي مع بداية القرن التاسع عشر وبعد انحسار الاحتلال الفرنسي ؟

ان المتصفح لكتابات الجبرتي تتضح امامه صورة الصعوبات التي وقفت امام انطلاق التفسير الواقعي والمنطقي للتاريخ ، خاصة امام مؤرخ معاصر للاحداث ، وكان معنيا مباشرة بنتائج هذه الاحداث . فهو عايش فترة قلق من تاريخ مصر كانت تحمل مخاض المستقبل . فترة تميزت بتنافس كل من انجلترا وفرنسا في السيطرة على مصر ، هذه المنافسة التي فتحت الباب امام زحف المؤثرات الغربية على البلاد في فترة الاحتلال الفرنسي مباشرة ، وفي اصلاحات محمد علي بصورة غير مباشرة . وهل يعقل لمؤرخ كالجبرتي ، ينتمي الى مدرسة المؤرخين المسلمين التقليديين ، ان يرحب بزعة الاوضاع القائمة التي ألفها الناس وتكيفوا لها ؟ ان الجبرتي لم يدرك ، ك اغلب معاصريه ، ان الحملة الفرنسية والافكار التي نشرتها في البلاد كان من نتائجها ازالة العزلة القسرية التي فرضت على البلاد منذ الفتوحات العثمانية ، وفككت الاطار العقائدي الموروث ذا الوجهة الدينية الذي كان يدفع المجتمع المصري بكل عاداته وتقاليده . ولذلك اعتبر الجبرتي انه يمثل الحلقة الاخيرة في كتابة التاريخ بالطريقة المتبعة عند المؤرخين المسلمين في العصور الوسطى ، مع الاخذ بالاعتبار حالة الركود والجمود الثقافي الذي عانت منه مصر كغيرها من الولايات العثمانية والتي انعكست بصورة واضحة على كتابات الجبرتي . ورغم كل هذه السلبيات التي نلمسها في طريقة الجبرتي في تفسيره للتاريخ فلا بد ان نذكر ان الاهمية الكبيرة لكتابات هذا الشيخ تظهر بوضوح عندما نعلم انها تكاد تكون المصدر المحلي الوحيد الذي كتب عن تاريخ مصر ، في القرنين السابع عشر والثامن عشر والربع الاول من القرن التاسع عشر ، بدقة وشمول منطقي النظير ، ولا نعثر في المصادر التاريخية المعاصرة لها على ما يرتفع الى قيمتها . من هنا تبرز اهمية مكانة الجبرتي كأول مؤرخ مصري يظهر بعد ابن اياس ، بعد ان كادت مصر تخلو من المؤرخين الكبار ما يقرب من ثلاثة قرون .

II كيف صور الجبرتي الصراع الفكري بين اجيال العصور الوسطى والعصر الحديث ؟

من الحتميات التاريخية ان الطاقة المحركة لجميع الامم ، والتي تدفعها للسير قدما نحو تحقيق سبل العيش الكريم ، تكمن في الصراع الفكري بين الاجيال المتعاقبة على مر العصور . ويتمحور هذا الصراع حول ملاحقة ركب التطور والتقدم البشري ، وبقدر ما يكون هذا الصراع حضاريا وفكريا بقدر ما يملك القدرة الفعالة والصحيحة التي باستطاعتها ان تطيح برواسب

الجمود المتراكمة فوق الاسس الحقيقية للتراث وجوهره الاصيل . واصالة هذا الجوهر وعمقه ومقداره الحضاري يظهر بوضوح في هذا الصراع عندما يستطيع ان يفجر الطاقات الكامنة لدى الاجيال الصاعدة لرفع تلك القواعد الصحيحة من التراث واعلاء صرحها . وقد عاش الجبرتي هذه المرحلة الصعبة من الصراع الفكري الذي اجتاحت ، ليس مصر والبلاد العربية فحسب ، بل العالم اجمع ، ولم يكن الصراع الذي عايش الجبرتي وطأته محليا عربيا ، بل عاش الصراع الفكري الذي انطلق من اوروبا وامتدت حدود صراعه الى العالم العربي عبر مصر ، ففي عصر الجبرتي كانت اوروبا ، وبالتحديد فرنسا بعد الثورة الفرنسية ، قد حطمت جمود العصور الدينية وعندها انطلقت مع عصر النهضة في ازالة الطغيان السياسي للعصر الوسيط . وشاهد الجبرتي بعض الانوار المتألقة من هذا الصراع الفكري الاوروبي على ارض مصر ، التي كانت في مرحلة ترقب وشيك الحدوث لطلائع صراع فكري رهيب بين القديم والحديث ، من اجل الانعتاق من قيود الجمود الفكري والركود الحضاري نحو آفاق ارحب من الحرية ، المتألقة بأنوار المعرفة التجريبية العقلانية ، المنفلتة من السلبات والغيبيات التي خدرت عقول اجيالنا العربية ردحا من القرون الخوالي . وقد عايش الجبرتي تطور هذا الصراع الفكري عبر اجيال ثلاثة :

الاول الذي عاصر الطبقة الاخيرة من المماليك في مصر . **والثاني** الذي واجه الحملة الفرنسية على مصر . **والثالث** الذي تمثل في عصر محمد علي ومحاولاته في ارساء اسس الدولة الحديثة .

وانقسم كل جيل من تلك الاجيال الثلاثة وسط هذا الصراع الفكري الى قسمين :

القسم الاول تمثل في التعصب لرواسب العصور الوسطى وسحرها واستمرارها في غيبات مطلقة .

والقسم الثاني اندفع في حماس منقطع النظير الى التجديد والخروج من طلاس السحر الى نور العلم وقيادة العقل المتمثل في الفهم السليم .

ثم شرح الجبرتي موقف الاجيال المعاصرة له من التاريخ بقوله : « ولم تزل الامم الماضية ، من حين اوجد الله هذا النوع الانساني ، تعني بتدوينه سلفا عن سلف وخلقا عن خلف ، الى ان نبذه اهل عصرنا واغفلوه وتركوه واهملوه وعدوه من شغل البطالين » .

هنا يبرز الجبرتي سبب الصراع الفكري عند معاصريه ، ويعزوه الى الاهمال المتعمد للتاريخ ، ويقول ان هذه الاجيال ، بابتعادها عن تاريخها ، قد ابتعدت عن نهج الحضارة الواضح . واتخذت لنفسها طريقا كان ينحدر بهم ، ويظنون لجهلهم وغفلتهم انهم الصاعدون . ثم بين الجبرتي بسخرية لاذعة طلائع الصراع الفكري بينه وبين تلك الاجيال الجامدة قائلا : « ولعمري انهم لمعدورون وبالا هم مشتغلون ، ولا يرضون لاقلامهم المتعبة في مثل هذه المنقبة ، فان الزمان انعكست احواله وتقلصت ظلاله ، وانخرمت قواعده في الحساب ، فلا تضبط وقائمه في دفاتر ولا كتاب ، واشغال الوقت في غير فائدة ضياع ، وما مضى وفات ليس له استرجاع الا ان

يكون مثل الحقير (يعني الجبرتي بذلك نفسه وذلك عن سخرية من اولئك الجاهلين بأهمية التاريخ) منزويا في زوايا الخمول والاهمال ، منجمعا عما شغلوا به من الاشغال ، فليشغل نفسه في اوقات خلوته ، ويسلي وحدته بعد سيئات الدهر وحسناته » . (١٤)

ونزل الجبرتي معترك الصراع الفكري ولم يتعصب ولم يتحزب بل كان يحمل في نفسه امانة المؤرخ ملتزما بقول الحق ولو على نفسه ، فاعتزازه بكتابه وما بذله فيه من جهد لم يجعله يعمى عن الاعتراف عن نفسه بقوله « هذا مع اعترافي بقصور الباع وفتور الطباع في قوانين المعاني العربية ، ودواوين المثاني الادبية » .

وفي ضوء هذه الخلفية التاريخية انطلق الجبرتي يصور مراحل الصراع الفكري بين اجيال العصور الوسطى والعصر الحديث . وازدادت آفات الجبرتي خبرة بالفكر القديم لانه رجع اليه ، وبالفكر الجديد على عهده لانه عايشه وفهمه ، فضلا عن قوة الصلة التي كانت له مع العامة والخاصة وخبر الجبرتي فنونا متعددة من نتاج الفكر الوسيط والحديث ومارس بعض اعمالها التطبيقية من رياضة التصوف وحسابات النجوم . وصار تصويره للصراع الفكري بين القديم والحديث تصوير خبير عالم بواطن الامور ومكان الحقيقة .

ويش الجبرتي عوامل واسباب الصراع الفكري على عهد الطبقة الاخيرة من حكم المماليك في مصر ، وحصر الصراع في هذه المرحلة حول قضيتين كبيرتين . افرزت كل منهما مظاهر خطيرة اصاب المجتمع على اختلاف طبقاته : احدهما الانحراف الفكري في حركة التصوف والاخرى قضية التخلف بين قادة الفكر . (١٥)

١ - الانحراف الفكري في حركة التصوف

بين الجبرتي ان العدو الاوحد للتفكير العقلي هو الجمود الديني الذي حمله المتصوفة على عهده في القرن الثامن عشر . هؤلاء تظاهروا بالعبادة التي اقصتهم عن العيش الجاد ، المتمثل بالكفاح من اجل تحسين وضع المجتمع ككل ، بغية التفرير بالعامة . فكثرت الادعياء وصار كل خامل ضعيف في العلم يلجأ الى التصوف . ثم اندس هذا الفريق المنحرف بين الناس وروجوا لتأويل القرآن . وحرص الجبرتي ان يميز بالصورة التي قدمها بين اولئك المنحرفين وبين تقاة المتصوفة ، وتمثل ذلك في اسبابه في وصف مواكب اولئك المنحرفين من دعاة التصوف وقدرتهم على اجتذاب الكثير من الناس من طبقات واعمار مختلفة ، نساء ورجالا واطفالا . وعانت هذه الطبقة من ادعياء الصوفية في المجتمع فسادا وفحشا من السير عراة في الطرقات الى المشي المخجل الذي قلده العامة تبركا بهم .

وما صورة الشيخ « صادومة » التي قدمها الجبرتي الا نموذجا عن خطورة هذه الطبقة

(١٤) انظر - الدكتور ابراهيم احمد العدوي - الجبرتي دراسات وبحوث - ص ٧٢ - ٧٤ .

(١٥) نفس المرجع - ص ٧٥ .

المتأخرة من المتصوفة ومفاسدهم ، فقد اوهم العامة ، بطلاسه ، انه قادر على مخاطبة الجن مشافهة ؛ وتعمق الجبرتي في تصوير هذا النموذج البشري للشيخ « صادومة » وظهر كيف ان الشيخ حسن الكفراوي الذي تولى منصب افتاء الشافعية كان من اتباع الشيخ « صادومة » ، وما آل اليه هذا الوضع من تأثيره المباشر على العامة .

وبدا الصراع ضد هؤلاء المنحرفين من المتصوفة ، والذي اسهم فيه ثلاث فئات من المجتمع ، تحدث عنها الجبرتي باعتبارها حملة الفكر الحديث ، والتي ضمت اصحاب العقول المفتحة من امراء الممالك والعلماء ومن عامة الناس ايضا . وتولى نفر من العلماء من اصحاب الفكر الجديد في هذه الفترة تحذير الناس من تلك المفاسد . كما اوضح الجبرتي اشتراك عامة الناس في هذا الصراع الفكري ضد المنحرفين من المتصوفة الى جانب رجال السلطة والعلماء . وبرزت الصورة التي اعطاها قابلية العامة للاصلاح في هذه المرحلة الاولى من الصراع الفكري وابرز استعداد هذه القاعدة الجماهيرية لان تسير وراء المصلح الصادق . (١٦)

ب - التخلف بين قادة الفكر :

وهنا يطرح الجبرتي عملية الصراع الفكري عند مجموعتين رئيسيتين من قادة الفكر ، احدهما جماعة العلماء الذين تمسكوا بالعلوم التقليدية وحاربوا كل تجديد في الفكر ، والثانية جماعة العلماء الرسميين الذين تولوا مناصب حكومية كبيرة في البلاد واشغلوا علمهم لتثبيت ومناصرة اصحاب السلطان ، عن طريق محاربة كل جديد يهدد السلطان ويخلخل المراكز القانونية التي يستمدون منها سلطتهم ، وما يتبع ذلك من زوال للنعيم الذي يرتعون به والامتيازات التي يملكونها . اما طريقة الجبرتي في عرض هذا الصراع فتمثلت باختيار النماذج البشرية التوضيحية لكل من اجيال العصور الوسطى والعصر الحديث . ووضح تحجر علماء العصور الوسطى ، الذي انعكس في عقول الملايين الذين تأثروا بهم ، فاعطاهم طابع الجمود والافق الضيق وعدم مواكبة التطور ، والتوقع في نظرة سلفية متأخرة رجعية . اما النماذج التي عرضها عن دعاة العصر الحديث فكانت تدعو الى تحصيل العلم الذي يجدد حيوية الامم وابنائها وانبعث حضارتها ، ويحرر العقل من السحر والاهام والاباطيل ، مع عرض المصادر الاولى لتراث الآباء والاجداد عرضا سليما يجعل منه قاعدة للانطلاق والانبعث الحضاري الصحيح المتطور ، لا منطلقا للقيود والاغلال والسير الى الوراء والتطلع الى الماضي بطريقة انهار سلبية .

وكان تنفيذ الجبرتي للعلماء التقليديين ، في طريقة منهجهم ، يتمثل بتوجيه اتهامات لهم بأنهم اقتصروا ، في جهودهم ، على الدراسات الدينية من حديث وتفسير وجدل في العقائد دون اجتهاد ، وبين قيمة الاجتهاد في هذا المضمار وقال : انهم نسوا ان الاجتهاد كان السبب في ازدهار الحياة الفكرية ايام مجد المسلمين . والعمل الرئيسي لديهم انحصر في متابعة الحواشي دون تبصر او فهم ولم يتناولوا علم الحساب الا لمعرفة الاحكام الشرعية في الميراث . والعلوم التي ظهرت اهميتها ،

(١٦) انظر المرجع نفسه - ص ٧٦ - ٧٧ - ٧٨ - للتوسع في هذا الموضوع .

نتيجة للصراع الفكري في أوروبا ، من جبر وهندسة وعلم للطبيعة وكيمياء فلم تكن جذيرة بأن تسمى علوما . وركز هنا الجبرتي هجومه على جهل العلماء الذين يتصدرون للفتوى والوعظ ، وجعلهم السبب المباشر في فساد احوال العامة في انحاء البلاد ، لانهم لا يعرفون كيف يرشدون البلاد ولم تكن لهم القدرة في التمييز بين الحق والباطل والحلال والحرام ؛ مقدما لنا كعادته نماذج لما ارتكبه هؤلاء العلماء من مفاصد وما نالوه من عقاب . وقدم لنا صورة احد العلماء الذي طلق امرأة من زوجها الذي كان غائبا وعندما عاد الزوج قدم شكوى ضد هذا الشيخ الى الامير يوسف بك الكبير الذي اشتهر بحرية الفكر ومحاربة اصحاب البدع من العلماء فألقى القبض على هذا الشيخ وحبسه مع اصحاب الجرائم . فثار نفر من زملائه المشايخ وذهبوا الى الامير مع جماعة سماهم الجبرتي باسم « المعممين » لحرصهم على لبس العمائم الضخمة . ودارت المناقشة بين هؤلاء المعممين والامير وهنا يبلغ الجبرتي قمة الروعة في صورة سجلها للصراع بين اجيال العصور الوسطى والعصر الحديث . استهل احد المعممين المناقشة بقوله « ما هذا الافعال وهذا التجاري » ؟ فقال له : « افعالكم يا شيخ اقبح » فقال له هذا قول في مذهب المالكية معمول به . ثم اشتد غيظ الامير وتقدم نحو الشيخ الجداوي الذي فسخ عقد الزواج ، صارخا في وجهه « والله اكسر رأسك » وعندئذ اشتدت دعاة الرجعية من المشايخ ، وسب احدهم الامير مذكرا اياه بأصله الاول ايام جاء رقيقا بين جماعة الرقيق ثم اشتراه سيده قبل ان يصبح من كبار الممالك قائلا له : لعنك الله ولعن اليسرجي (تاجر الرقيق) الذي جاء بك ومن باعك ومن اشتراك ومن جعلك اميرا . ولم ينته هذا الصراع الا بواسطة فرضت الحل الوسط باطلاق سراح الشيخ من سجنه . واثارت هذه الحادثة ثائرة عدد من العلماء ممن انصار التجديد فتناولوا بسخرية اولئك « المعممين » ونقل الجبرتي ذلك في قصيدة للشاعر حسن البدري الحجازي والتي هاجم فيها « المعممين » قائلا :

عمائما كبروا وكما قد وسعوه لكي يسودوا
وتحت اباطهم روايسا تسعين كراسا او تزيد . (١٧)

وقدم الجبرتي نماذج اخرى من جهاد العلماء التقدميين الذين انتمى اليهم والده الشيخ حسن الجبرتي ، الذي لم يقصر اهتمامه على العلوم الدينية فقط ، بل تناول العلوم بمفهومها الاشم والاسع والتي شملت كل انواع العلوم التطبيقية . ولأجل اشتغاله بهذه العلوم كان يملك ، الآلات الفلكية من الكرات النحاسية ، وآلات الارتفاع والميالات والارصاد والاسطرلابات والارباع والعدد الهندسية وادوات الصناعات بأغلبيتها .

الى جانب علماء الدين المتخلفين تناول الجبرتي ايضا التخلف الذي ظهر في صفوف العلماء الرسميين الذين عقدوا اواصر المودة مع رجال السلطة بفية الدخول في الحياة الدنيا وما تشمله من نعيم دنيوي زائل . وقدم الجبرتي عدة نماذج من هذه الطبقة ، من بينها شيخ كان

يصرف جل وقته في جمع المال بينما يستغل القليل منه بالمذاكرة ومجالسة العلماء . اما الصفات التي عرف بها هذا الشيخ فهي التعالي على ابناء جنسه... واصرارته على لبس القاوون بعمامته الخضراء تشبها بأكابر الامراء . وزاد من تعظم هذا العالم ان زملاءه اذا اقتربوا منه ، وقبل مسافة ذراعين ، ضموا أيابهم تأديبا ، ثم حيوا ومدوا أيديهم لتقبيل يده او طرف ثوبه .. وكان يقتصر في رد تحيتهم على كلمة « خير .. خير » .

وهاجم دعاة الفكر المتجدد هذه المظاهر الفارغة من الفرور المتعالي لدى العلماء الرسميين ، ونددوا بهم في كل مكان ، وبهذا تركت المرحلة الاولى من الصراع الفكري صورة واضحة عن نوعية بدء هذا الصراع ، واعطينا بذلك صورة جلية عن ان اجيال العصور الوسطى وان بدت متعنتة طاغية فان اسسها قد ابتدأت بالاهتزاز وان جيل التجديد وان بدا صوته خافتا فقد بدأت اولى خطوات مسيرة التحرر التي لا تسير الى الوراء ابدا وفق حتمية التطور . (١٨)

ثم تأتي المرحلة الثانية من الصراع والتي تمثلت في الالتقاء بين الافكار الجديدة التي تولدت عن صراع المرحلة الاولى وبين نتاج الفكر الاوربي الذي خبره المصريون مباشرة بعد الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٢١٣ هـ - ١٧٩٨ م . وقد عرف الجبرتي هذه السنة بقوله « وهي اولى سني الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة ... واختلاف الزمن ، وانعكاس المطبوع ، وانقلاب الموضوع » .

وتركز الصراع في هذه المرحلة حول مسالتين اساسيتين احدهما مدى الارتباط بين العقيدة والعمل ، والثانية كيفية التجاوب مع الحضارة الاوربية .

ولمعالجة هاتين المسالتين سلك الجبرتي نهجا جديدا ، فقد اعتنى ، الى جانب التراجم البشرية التي قدمها نماذج لهذا الصراع ، بسررد الاحداث المهمة التي تلقي الاضواء الكاشفة على هذا الصراع ، مع قلم واع حر وجريء استطاع ان يطرح المسألة برمتها وان يكون ظلالتها والوانها .

وبدأت القضية الاولى مع احتكاك المصريين بالفرنسيين ، الذين لم يدخلوا مصر كحملة عسكرية فقط ، بل رافقهم الكثير من العلماء المتخصصين الذين عملوا مع المجموعة العسكرية بتنسيق وانسجام تام . وتركز همّ المصريين في الوصول الى افضل الطرق الناجمة لمواجهة الغزو العسكري المتمثل بالجنود الفرنسيين والتحدي الحضاري المتمثل بنمط وسلوك العلماء الفرنسيين . ولا تكفي السواعد البشرية لصد الحملة العسكرية فقط بل يقتضي مواجهة التحدي الحضاري بعقل سليم وفكر متفتح ، ليتم رد التحدي بنفس اسلوبه كي لا يتيه الرد في مناهات الضلال والتخبط والفشل الدريع . ولهذا السبب تركزت عملية الاعداد لهذا الصد في اصحاب الفكر المتجدد ، فقاموا بمحاولة توفيقية بين العقيدة الاسلامية وبين الاسلوب الذي يجب ان يتبعوه لصد هذا الغزو . وراوا ان تسمكهم بمبادئ الشريعة الاسلامية لا يحول بينهم وبين

مواجهة الاوضاع التي انقلبت فجأة بمجيء الحملة الفرنسية ، واكدوا ان هناك تأثيرا متبادلا بين العقيدة والعمل . فالعقيدة تعتبر الحث على العمل من صلب دعوتها ، وفي المقابل تكون نتيجة العمل اثباتا للعقيدة يطبع النفس عليها ويرسخ اوتادها . « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله - قرآن كريم » .

واعتمد الجبرتي في شرح وعرض هذه المرحلة من الصراع على الوثائق ، التي نقلها بامانة وصدق لتكون دليلا على وجهة هذا الصراع ، فأورد صورة المنشور الاول الذي اعلنه نابليون بونابرت على اهل مصر بعد استيلائه على الاسكندرية ، والذي تضمن افكارا جديدة عن مفهوم العقيدة ، وكيف ان هذا المفهوم الجديد يختلف عما هو عرف قديم ، والذي اساء استخدامه الماليك في مصر . وكان لا بد لهذه الافكار الجديدة من ان تدخل حلبة الصراع المرير ، طوال عهد الحملة الفرنسية في مصر مع رواسب الماضي ، ولو انه استفيد منها واتيح قبولها بحذر شديد . وتجلى ذلك بهروب العلماء الكبار من مصر ، وبرفض الشيخ الشرقاوي استعمال الزي الفرنسي المتمثل باللون الاحمر والابيض والكحلي ، والذي حاول نابليون ان يضعه على كتف الشرقاوي بحضور العلماء . وتجلت قمة هذا الصراع في رمي الشرقاوي للطليسان على الارض وتغير لونه واحتداد طبعه . لانه اعتبر قبول ذلك مضیعة لقدر علماء المسلمين عند الله وعند عامة المسلمين .

وانتقل هذا النوع من الصراع الى العامة الذين رفضوا ان يضعوا الشارات وخاصة احداها المعروفة بالوردة . وقال الجبرتي في ذلك « فانف الناس من وضعها ، وبعضهم رأى ان ذلك لا يخل بالدين اذ هو مكروه » . وكشف الجبرتي بعد ذلك عن قيام لون جديد من التفكير الوطني القومي الذي جاء وليد الاحتكاك بمفهوم الفرنسيين عن السلطان ، وهنا اخذت العقيدة طابعا جديدا تمثل في الحرص على المظهر الوطني والديني في الوقت نفسه . وتجسدت هذه الافكار بالثورات المستمرة التي قام بها المصريون طيلة فترة احتلال الفرنسيين لارضهم . حتى الجبرتي نفسه عايش هذا الصراع واعتملت في نفسه كل هذه الانفعالات والاحاسيس ، فكان كتابه « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيين » اصدق صورة عن هذه الافكار وهذا الصراع . (١٩)

وقد انار الجدل حول المفهوم الجديد للعقيدة قضية جد مرتبطة بها ، او قد تلحق المساس بالعقيدة عند بعض العلماء . وهي كيفية التجاوب مع الحضارة الاوروبية . فحتى هذا العصر بقيت العقيدة الحارس الامين لتطور الفكر ، وحينما ارتبطت بالعمل بينت ان الاخذ بالحضارة الاوروبية لا يتعارض مع جوهرها ، وذلك في النواحي التي تزيل جمود الماضي وتفك اغلاله وتؤدي بالمجتمع الى التقدم العلمي واسترداد طريقه المجيدة .

لقد افاق العلماء على حقيقة لا تقبل الجدل ، وهي ان الحضارة الغربية اصبحت حضارة عالمية ، وان كل حضارة تريد الوقوف بجانبها او الانتصار عليها لا بد وان تأخذ بنفس الاسباب

التي أدت الى ازدهار وتفتح الحضارة الاوروبية، من حيث الاعتماد على العلم والحرية السياسية . وكان للجبرتي الفضل الاكبر في حمل هذا العبء ، فانبرى يوضح اهمية التفكير العلمي وضرورة الاخذ به ، الى جانب اعجابه بأهل وطنه وهم يقومون بالثورات ضد المحتلين الفرنسيين ، وعبر هذا الاعجاب كان يأسف لحدوث تدمير الاجهزة التي لا تقدر قيمتها « الا عند من يعرف صنعها » . ويبدو اعجاب الجبرتي بالتقدم العلمي وفائدته من الوصف المطول الذي اورده عن زيارته للمعامل الخاصة بالابحاث والتي اقامها الفرنسيون في القاهرة . وروى الجبرتي هذا اللقاء الحضاري بين اجيال العصور الوسطى والعصر الحديث دون ان يخجل من السخرية مما حدث له من رهبة وهو يشاهد الهوة الواسعة بين الفكر العلمي في وطنه وبين ما وصل اليه الفرنسيون من تقدم (٢٠) .

ثم عاد الجبرتي بعد استعراضه للتطورات الجديدة الخاصة بمشاهداته في مركز الابحاث الفرنسية الى تناول التراجم مرة اخرى ، يستكمل بها مراحل الصراع الفكري بين القديم والحديث المستجد مع الحملة الفرنسية، ووضح ان التجاوب الحضاري كان سريعا بين اجيال الفكر الحديث لاقبالهم على العلم الغربي وضرب لذلك امثلة عندما تناول ترجمة الشيخ حسن العطار الذي اعتبر من دعاة التجديد في عصره والذين قرروا وعملوا على ان تستلهم مصر الحضارة الاوروبية طريقا صحيحا لاعادة سيرها على طريق التقدم الصحيح الثمر .

المرحلة الثالثة من الصراع الفكري :

واخيرا دخل الجبرتي بكتاباته التاريخية ، شخصيا ، حلبة الصراع الفكري في هذه المرحلة ، اذ عمد الى تغيير اسلوبه في الكتابة فلم يقتصر على سرد الاحداث وتناول التراجم لهذه الفترة ، بل انبرى يجاهد بقلمه ، دون ان يابه لما يلحق امثاله ، من اصحاب الفكر الحر والقول الجريء ، من اضطهاد وظلم .

ودار الصراع الفكري في هذه المرحلة حول فكرتين متناقضتين ، ما زالت تدور حولهما حتى الآن معالم التكوين السياسي والحضاري للعالمين الاسلامي والعربي . وكانت الخطوة الاولى ، بدء الدعوة الى الاصلاح الروحي والانطلاق نحو آفاق العصر الحديث بأمان ، وذلك على النحو الذي قامت عليه الدعوة الوهابية التي عاصرها الجبرتي وتحمس لها ورافق تطورها . اما الدعوة الثانية فقد تركزت في تبني معركة الاصلاح المادي، والتي اعتبرتها الطريق الصحيح الذي لا بديل عنه في ملاحقة ركب الحضارة العالمية ، وقد اعطى الجبرتي مثلا لذلك جهود محمد علي في بناء دولته بمصر . وزاد في حيوية تصوير الجبرتي لهاتين القضيتين المعاصرتين له ، ان احداث كل منهما تشابكت مع الاخرى والتقت وجها لوجه في صراع التجأ فيه الفكر الى السلاح والقلم معا .

وبرع الجبرتي في تصويره للصراع الذي خاضته الدعوة الوهابية والتي جسدت بأفكارها

مذهبه السلفي وفكره الحر في نفس الوقت . كما قام بتدوين الافكار الجديدة التي نادى بها هذه الدعوة عند دراسته لاحداثها التاريخية ، وقد تميز عرضه بالتشويق البعيد عن الجفاف الذي يصاحب عادة الدراسات الفلسفية حول العقائد ، فأوضح كيف ان الوهابيين اتخذوا من فكرة التوحيد في العقيدة والتوحيد في التشريع سلاحا لهم وهم يخوضون معركتهم ضد الجمود والتحجر . وقامت فكرة التوحيد في العقيدة على ابطال البدع التي تسربت الى الاسلام ، كاعمال المتصوفة وزيارة الاضرحة والطبل والزمر في الموالد والحج ، والعمل على اعادة طهارة الحياة الاسلامية الاولى وتعاليمها السليمة ، اما فكرة التوحيد في التشريع فبينت ان قفل باب الاجتهاد في آخر ايام العصور الوسطى كان السبب المباشر ، الذي قاد الى هذا الجمود والتقليد ، وكان دافعا للجري وراء الفتاوى من كتب السابقين وطرح فكرة الخلاص من هذه الجهالة ، والمتمثلة في العودة الى الاجتهاد في فهم العقائد ؛ لانه ليس لاحد حجة في الدين سوى الله سبحانه وتعالى وكلام الرسول الكريم . ونتج عن افكار الدعوة الوهابية هدم البدع التي ادخلها الناس زورا على الاسلام ، واختتم الجبرتي تصويره لتطور الحركة الوهابية مبينا ان اعداءها من اصحاب السلطان العثماني والعلماء الرسميين وبسطاء العامة المضللين قد تكتلوا ولجأوا الى القوة والبطش للقضاء على هذه الدعوة ، وكان محمد علي اداة التنفيذ في القضاء على هذه الحركة التي اعتبرها الجبرتي تمثل الفكر الحر في العقيدة والدافع الى مسايرة الجديد دون الخروج عن جوهر الدين . ولذلك انطلق الجبرتي يؤكد اصالة هذه الحركة وقوة دعائها برغم اسر البعض منهم في مصر . وتناول الجبرتي في نهاية كلامه مصير الحركة الوهابية على يد محمد علي ، متخذا هذا المصير فرصة انتقل منها الى معالجة الدعوة الثانية التي اطلقها هذا الحاكم وما سلكه في سبيل الاصلاح المادي .

وكان الجبرتي صريحا وواقعا في الاحكام التي اطلقها على محمد علي . وجاءت احكامه صورة صادقة للمبادئ التي اعتنقها وللمثل التي آمن بها وعمل جاهدا على تحقيقها . فوصف بصدق ، كما يعتقد ، النهج الذي سار عليه محمد علي . وكان هدف الصراع بينهما هو الوصول الى البناء المثالي ، دون الاطاحة بالقديم اطاحة حاقدة اعمى ، او الجري وراء الجديد دون وعي وادراك ، فاشاد الجبرتي بما قام به محمد علي من اصلاح مادي شمل جميع المرافق العامة وخاصة مرفق التعليم وتطبيق المناهج الحديثة فيه . ولكن ساء ان محمد علي ، في سبيل تحقيق اهدافه ، لجأ الى اساليب ابعده عن الفضائل المحمودة . فهاجم الجبرتي الاخطاء والمظالم التي رافقت الاصلاحات المطبقة ، كالاساليب اللتوية التي انتهجها محمد علي على الصعيدين السياسي والاقتصادي . وختم الجبرتي كلامه عن اصلاحات محمد علي بتأييد اصلاحاته دون ان ينسى ذكر عدم العدالة وعدم الشهامة في اسلوب تطبيقها .

وقد لحق الجبرتي ، من صراحته ، الاضطهاد الذي يبنى به المفكر الحر في نظام غير ديموقراطي ، فقد عمد محمد علي الى تدبير مؤامرة لقتل ابن هذا المؤرخ ، عندما علم بالانتقادات اللاذعة التي وجهها الجبرتي اليه وكان ذلك عام ١٨٢٢م . وانطوى الجبرتي نتيجة لهذه الفاجعة

في حياته حتى توفي عام ١٨٢٥ م ، تاركا صورة زاخرة بالالوان المتناقضة والخطوط المتحركة للصراع الفكري بين القديم والحديث . (٢١)

النهج الذي اتبعه الجبرتي في رؤية الظواهر التاريخية :

ما هي القوانين التي تحكم عالم التاريخ عند الجبرتي ؟ من الصعوبة الاجابة على ذلك قبل ان نستعرض الخبر عنده ، ومعظم اخباره لا تحمل سوى التحقيق او التفسير القليل لان الجبرتي كان يصوغ احكامه بكلمات مقتضبة تعتبر احكاما خلقية ، من « ظلم » (٢٢) و « سخافة » (٢٣) او « خزعبلات » ، او ، وهذا الامر « شنيع جدا » . (٢٤) وهذا الشخص لعين او كافر . (٢٥) ومعظم عباراته لا تعطينا رايًا علميا بالحدث ، ولكن تعتبر استكمالا للخبر وتلويها لصورته . ومع ذلك لا يسعنا الا ان نقر بيقين ان الجبرتي قد ترك لنا وثيقة من اخطر الوثائق في تاريخنا الحديث كله ؛ لانها ، الى جانب المادة التاريخية النادرة عن المرحلة التي تؤرخ لها في معالمها السياسية والاجتماعية ، فهي وثيقة هامة تعكس فكر النخبة من المفكرين المصريين ، في تلك الفترة ، وآرائهم وتعليقاتهم على النظم السياسية والاجتماعية التي توفقت عن ان تكون استمرارا تقليديا للظواهر المصرية في العصور الوسطى ، ومثلت فترة بدء التغيير الشامل الذي كان مألوفًا ؛ وقدر للجبرتي ان يعيش لحظات الاحتدام التاريخي التي كانت السبب المباشر في تغيير الظواهر وانقلاب الاوضاع في مصر ، فرصد حوادثها وسجلها ، واعتبر كتاباه وثيقتين فكريتين شديدتي الاهمية بالغتي الخطورة ، اذ يعكسان رؤية فكرية محددة لهذه السنوات التي تغيرت فيها مصر تغيرات ما تزال فاعلة في اوضاعها الراهنة ومؤثرة فيها .

لذلك يعتبر تصنيف الجبرتي مع الاخباريين ، بشكل مطلق : خطأ ؛ ولكننا ، مع افتراض صحته ، فهذا لا يعني ان الاخباريين لا يملكون المنهج او الموقف . فالطريقة التي كتب بها الجبرتي ، في اختيار اخبار معينة وترك البعض الآخر ، وحرصه على الترجمة لافراد معينين وترك الآخرين يعكس وجهة نظر ضمنية ، وعلى سبيل المثال فان الجبرتي « في مظهر التقديس » لم يذكر حوادث شهر ربيع الاول ١٢١٦ هـ (يوليو ١٨٠١ م وشهر ربيع الثاني من نفس السنة . وقد عاد في كتابه الثاني « عجائب الآثار » فأورد حوادث الشهرين متكاملة - بحسب جهده في التجميع - ولا شك ان حجب الاخبار ثم ايرادها يعتبر موقفا له . فقد كانت كلها تسجيلا لقبايع وجرائم ارتكبها العثمانيون عندما دخلوا القاهرة مرة ثانية . وبصرف النظر عن دلالة هذا فيما

(٢١) انظر - عبد الرحمن الجبرتي - الدكتور ابراهيم العدوي - ص ٨٦ - ٨٧ - ٨٨ .

(٢٢) عجائب الآثار - الجبرتي - الجزء الاول - ص ١٦ - ١٨ .

(٢٣) عجائب الآثار - الجبرتي - الجزء الثالث - ص ١٧ - ٤٣٥ .

(٢٤) عجائب الآثار - الجبرتي - الجزء الاول - ص ٢٢٥ .

(٢٥) معظم صفحات مظهر التقديس .

يتعلق بموقفه من العثمانيين . فهو يعكس دلالة ان الخبر ليس دائما عرضا لواقع اصم ولكنه اختيار من هذا الواقع ، وما يتحكم في الاختيار هو « وجهة النظر » او « النهج » . وقد يكون ترتيب ابحاث الكتاب نفسه ذا دلالة ، فالجبرتي الذي يعتبر العلماء « امناء الله في العالم وخلاصة بني آدم » هم خلاصة خاصة الله في خلقه » . (٢٦) يحرص دائما ان يقدم تراجم من يموت منهم على تراجم الامراء مهما علا شأنهم ولا يخلطهم بغيرهم . (٢٧) وهنا لا بد لنا من وقفة فالمؤرخون المسلمون كانوا يهدفون خلال كتاباتهم الى ابراز نظرتهم في المجتمع والامة فالبلاذري ، مثلا ، كان هدفه يرتكز على ابراز الارستقراطية العربية ، التي تدور حولها كل الاهتمامات في الامة ، من اجماع وافتاء وتمركز للسلطة ؛ ومن هنا تبرز منهجية الجبرتي في تراجمه ، فنقطة الثقل لمجتمعهم هم العلماء : العلماء الذين ينصرفون الى الاجتهاد على اسس شرعية صحيحة ، والعلماء الذين ينصرفون الى مناهج العلوم التطبيقية . وهنا ندرك ان نهج الجبرتي في الاصلاح كان يتمحور دائما حول العلم والعلماء الذين اعتبرهم الشعلة المضيئة للاجيال ، والضرورة القصوى لتقدم واصلاح اي مجتمع .

كما ان الدافع الاولي لكتابه التاريخ كان نزولا عند طلب شيخه الزبيدي . فلم تكن كتاباته عن اعلام المائة المنصرمة يوميات ، كما قال بعض من تناولوا الجبرتي ؛ اذ اضطر الجبرتي ان يتناول تراجم هؤلاء الاعلام من المصادر ليستكمل بها تاريخ القرن الثالث عشر . كما ان تدويناته اليومية عن الاحداث التي عاصرها ، عاد الى تبويبها وتنقيحها ما بين سنة ١٨٠٥ - ١٨٠٦ . ولعل هذه العودة افادته كثيرا لان بعض المظاهر التاريخية التي عاصرها لم تكن قد استكملت ملامحها اثناء التدوين ، وانما بعد فترة زمنية لاحقة . ولعل الجبرتي استفاد من هذه الفترة الزمنية ، الفاصلة بين التدوين وبين اعادة التنقيح والتبويب ، في التخلص من التأثير المعاصر والفجائي للاحداث ومكنه ذلك فيما بعد من استخلاص نتائج ، ربما لم تكن واضحة او مفهومة امامه حين حدوثها ، فاستطاع ان ينقل الاخبار في افق اكثر رحابة ، يتيح كشف ملامح وجهة نظره والقوانين التي ينظر الى التاريخ بمقتضاها ، ويعطينا مادة للبحث في منهج الجبرتي ؛ مع الاخذ بعين الاعتبار جانب المعاصرة الذي اثر الى حد كبير في رؤية الجبرتي لظواهر عصره ، والذي عكس موقفا سياسيا اكثر مما عكس رؤية منهجية ، واذا كان صحيحا ان اي رؤية منهجية هي في النتيجة النهائية رؤية سياسية ، فان علينا دائما ان نحذر من ان تفسر السياسة المنهجية العلمية . ولكي نصل الى الرؤية الصحيحة لمنهجية الجبرتي لا بد لنا من ان ندمج رؤيته المنهجية في موقفه السياسي - مع وضع عامل المعاصرة والاثار المباشر في الاعتبار - .

والمدخل الطبيعي لفهم موقف الجبرتي مؤرخا وسياسيا هو في تصنيفه ضمن البيئة التي عمل من داخلها ؛ وانه ، في حكمه على ظواهر عصره التاريخية ، يجب ان لا يغرب عن بالنا كونه

(٢٦) ابراهيم جلال بك - من يوميات الجبرتي - القاهرة - مطابع اخبار اليوم - ص ١٢ (عجائب الآثار) .

(٢٧) انظر - الجبرتي دراسات وبحوث - الاستاذ صلاح ميسى - ص ١٤٢ - ١٤٣ .

ابنا لطبقة العلماء المصريين الاسلاميين في ذلك العصر وممثلا لها . وكانت هذه الطبقة نموذجاً اجتماعياً شديداً الفاعلية والتأثير ، بحكم مصالح طبقية واضحة اثرت عليها الاحداث تأثيراً مباشراً ، سواء اصلاحات محمد علي ام طغيان العلماء الرسميين . ولذلك فهو يقف اجتماعياً في صف المستثمرين المرتبطين بالحكم المملوكي بنفعية اقتصادية ، اذ كانت لهم حقوق التنظر على اراضي الاوقاف الخيرية والحق في ان يكون لهم التزامات الى جانب المالك . وكذلك كانوا يملكون حق الاستثمار التجاري ؛ فوالد الجبرتي كان يتعاطى التجارة واجداده وجداته من المشهود لهم بالثروة التي تتضاعف بالزواج الذي يتم عن طريق اضافة الثراء على الثراء . وكذلك ذكر الجبرتي ان الشيخ سليمان الجوسقي - زعيم ثورة القاهرة الاولى على عهد الحملة الفرنسية - « كان يخزن الفلال ويبيعها في سني الفلوات بالسواحل والرقع بأقصى القيمة » . (٢٨) وهذا نموذج للعديد من المشايخ المنتمين لهذه الطبقة .

ومن الطبيعي ، وكبار المشايخ ينتمون الى الشرائح المستثمرة في المجتمع ، ان يمارسوا نفس ما يفعله المستثمرون للوصول الى مضاعفة الثروة . ولهذا كان كبار علماء الازهر يشكلون جزءاً من الظاهرة المملوكية في بعض جوانبها الاستثمارية . فالامراء المالك ، لتنافسهم بين بعضهم البعض ، كانوا بحاجة لدعم جماهيري يؤمنه لهم العلماء عن طريق تأثيرهم الاجتماعي ولذلك كثرت هدايا امراء المالك الى العلماء فتضاعفت اهمية هؤلاء السياسية فشكلوا طبقة حاكمة ثابتة ، (٢٩) من بين مهماتها تهدئة الجماهير الشعبية في بعض الاحوال لحساب النظام القائم .

واذا كان الازهريون - وهم الطبقة المفكرة المصرية اذ ذاك - محصورين ذهنياً في حدود ضيقة ، همهم مضاعفة الدخل ولو عن طريق استغلال الشعب ، فان درجة التخلف المصري قد صورها الجبرتي بقوله عن علماء الازهر انهم « افتتنوا بالدنيا وهجروا مذاكرة المسائل ومداولة العلم الا بعقدار حفظ الناموس مع ترك العمل بالكلية » (٣٠)

وبهذا تكون السمة العامة للفكر المصري في تلك المرحلة هي التدهور العام في التفكير لدرجة الوقوع في اسر الخرافة . وقد انصب نقد الجبرتي للمشايخ على تدهورهم العقلي ، والذي وصف سببه بأنه اقبالهم على الدنيا . فهل يبدو هذا السبب هو المبرر الحقيقي لهذا التدهور المفزع ؟ بالطبع ان ذلك لا يبدو المبرر الحقيقي . ففي نظرة الجبرتي للظواهر الطبيعية في عصره لم يستطع ان يرتفع عن مستوى عصره ، وظل مرهقاً بهذا العصر لا يستخلص العبرة الباردة ولا الحقيقة الاجتماعية . (٣١)

(٢٨) - مجانب الآثار - ج ٢ - ص ٤١٦ - ٤٢٦ - ص ٢٧٨ . (وانظر الجبرتي دراسات وبحوث ص - ١٤٨) .

(٢٩) - مجانب الآثار - ج ٢ - ص ٢١٩ .

(٣٠) - عجائب الآثار - ج ٣ - ص ٢٢٠ - وانظر الجبرتي - دراسات وبحوث - مقالة الاسناد صلاح عيسى - ص ١٥٠ - ١٥٢ .

(٣١) - خليل شيبوب . عبد الرحمن الجبرتي - دار المعارف - القاهرة ١٩٤٨ - ص ٩٩ .

والخط العام الذي يحكم مفهوم الجبرتي للتاريخ هو النظر اليه ، باعتباره محكوماً بحتمية جبرية تحقق الإرادة الالهية ، ولا شك انه تبنى هذا المفهوم لانسجامه مع ثقافته الدينية وتعصبه السني وانتمائه الصوفي الروحاني ، ولا شك ان اطاراً من الفهم الاسطوري قد احاط بهذا كله نتيجة للتدهور العقلي الذي كان سائداً في عصره ، فهو في مقدمة « مظهر التقديس » يشير الى امكانية التنبؤ بالوقائع التاريخية من حركة النجوم . (٣٢) لكن هذا الفكر يتوارى ، الى درجة ما ، في المقدمة النظرية التي كتبها لعجائب الآثار ، والتي تكشف بدرجة ادق مفهومه للتاريخ ، وهو يؤكد فيها بأن الانسان حيوان اجتماعي « اذ خلق الله الانسان ضعيفاً لا يستقل وحده بأمر معاشه لاحتياجه الى غذاء ومسكن ولباس وسلاح ، فجعلهم الله يتعاونون في تحصيلها وترتيبها بأن يزرع هذا لذلك ويخبز ذاك لهذا ، وعلى هذا القياس تتم سائر امورهم ومصالحهم . (٣٣)

وعنده ان موضوع التاريخ هو احوال هذا المجتمع فهو « علم يبحث فيه عن معرفة احوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وانسابهم ووفياتهم . لكنه يحفظ للشخصيات البارزة مكانها في هذا الموضوع مثل « الانبياء والاولياء والعلماء والشعراء والسلطين وغيرهم » . (٣٤)

وهدف قراءة التاريخ هو العظة والاعتبار او قياس الحاضر على الماضي . وجوهر نفعية التاريخ يتمثل في « حصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن ليحترز العاقل عن مثل احوال ... الهالكين من الامم المذكورة ويستجلب خيار افعالهم ويجتنب سوء اقوالهم ويزهده في الفاني ويجتهد في طلب الباقي . » (٣٥)

وحركة التاريخ لدى الجبرتي تتجه الى تحقيق العدل ، والله « هو العادل الحقيقي الذي جعل لكل شيء قدراً » والانسان لا يستطيع ان يعدل اذا تجاوز اوامر ونواهيه . والقانون السياسي هو كتاب الله ، والميزان الذي يحكم به على الناس هو العدل ، ولان مباشرة هذا الامر بواسطة الله « هو على خلاف ترتيب الملكة وقانون الحكمة » فانه قد « استخلف فيهم خلائف وضع في قلوبهم العلم - اي القرآن - والعدل - اي الميزان - ليحكموا بها بين الناس » والنظام الاجتماعي كله يفسد في رأي الجبرتي اذا تنازع هؤلاء الخلفاء في وضع الشريعة (٣٦) .

والذي يسهر على تطبيق العدل في نظر الجبرتي « خمس فئات تتوزع في نظام طبقي، وهي - الانبياء والعلماء وولاة الامور واوساط الناس والقائمون بسياسة نفوسهم » وبما ان النبوات قد

(٣٢) مظهر التقديس - الجزء الاول - ص ٢٠ .

(٣٣) عجائب الآثار - الجزء الاول - ص ١٣ .

(٣٤) عجائب الآثار - الجزء الاول - ص ٦ .

(٣٥) عجائب الآثار - الجزء الاول - ص ٦ - وانظر للتوسع في ذلك - الجبرتي دراسات وبحوث - ص ١٥٤ - الاستاذ صلاح عيسى .

(٣٦) عجائب الآثار - المقدمة - ص ١٣ - وانظر الاستاذ صلاح عيسى - نفس المرجع - ص ١٥٤ - ١٥٥ .

ختمت برسالة محمد . فان العلماء وهم الطبقة الثانية يقومون بدور الانبياء « وهم ورثتهم » .
واخذ هذه الفئات باطار واسع يفسر كل الظواهر التاريخية عند الجبرتي ، ولذلك عندما
اعاد النظر في عصره ، صور ان الانهيار والتدهور المتمثل بالانقلاب الحاد الذي نتج عن الثورات
على عهد الحملة الفرنسية وما احدثه محمد علي هو نتيجة لتدهور العلماء ، ولذلك انصرف بصور ،
بشفف منقطع النظير ، حالة تدهور العلماء لانها السبب الرئيسي في جمود المجتمع ومن ثم
الوصول الى مرحلة الانهيار التام . ولهذا ، وانطلاقا من فرضيته ، انهار التاريخ بانهيائهم وذهبت
مصر عندما ضاعوا . وتطبيقا لهذه الرؤية فان الجبرتي اعتبر وفاة الصوفي الامام محمد بن
سالم الحفاوي الشافعي سنة ١١٨١ هـ هو بداية « نزول البلاء واختلال احوال الديار
المصرية » . (٣٧)

والجبرتي ، منطلقا من مفهومه للتاريخ ، يأخذ كل المظاهر التاريخية في عصره على هذا
المحمل . صحيح ان العمل المنظم المتواصل المقرون بالعلم واجب وضروري للوصول الى الاحسن ،
لكن كل ذلك محكوم بسنن الالهية تكون جزاء احيانا لما يقوم به الناس من تصرفات تبعد او تقرب
من العدل الالهي .

ورغم هذه السلبية ، التي ربط بها الجبرتي مفهومه للتاريخ وفهمه واستعماله لظواهره ،
فانه يعتبر المؤرخ الوحيد في عصره الذي تناول الشرق والغرب واعتبره ثروة تاريخية غنية
لتاريخ مصر واصدق صورة تعبيرية عن صراع التغير الذي اجتاحت مصر في القرن التاسع
عشر .

(٣٧) انظر - الجبرتي دراسات وبحوث - الاستاذ صلاح ميسى - ص ١٥٦ - ١٥٧ .